الأزهر بين القديم والجديد

للأستاذ سليمان دنيا

إلى مجال الفكر الصائل على صفحات « الرسالة » الغراء أحول مجرى ذلك الصراع الفكرى الذى دار على صفحات الأهرام بين مقال الأستاذ محمود الشرقاوى الذى عاب فيه على الأزهريين تمسكهم بمؤلفات العصر المملوكى التى تتسم بالركاكة والحشو والتعقيد والجمود ، والذى تمثل فيه بقول الشاعر :

عذيرى من قوم يقولون كلما طلبت دليلا : هكذا قال مالك .

ودعا فيه إلى الأخذ بالأقدم والأقوم من مؤلفات الفترة الواقعة بين القرنين الثانى والخامس الهجريين .

ومقال الأستاذ محمد على مخلوف الذى ذهب فيه إلى أن فى مؤلفات العصر المملوكى من العلم النافع والأدب المفيد ما ينمى فى النشء ملكات البحث والجدل والقدرة على التصرف فى المناظرة . وأنها والحالة هذه ، وبعد أن بذل الأزهريون جهودا موفقة فى تنقيحها وتهذيبها ، لا ينبغى لنا العزوف عنها واللجوء إلى سواها . واستشهد لوجهة نظره بقول الإمام الرافعى .

« إنى على بغضى لأكثر الكتب التى ألفت فى العصور المتأخرة أكره من الطلاب أن يعجزوا عن فهمها ، لأن فيها خيراً كثيرا ، ودقائق لا يصح الجهل بها »

وختم مقاله متمثلا بقول ابن دقيق العيد.

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتموحتى يكون لكم عند ؟

* * *

وفى رأيى أنه لا خير للأزهر فى أن تقتصر دراسته على مؤلفات الفترة الواقعة بين القرنين الثانى والخامس الهجريين ، تلك التى يسمونها « عصر السلفين الذهبى » ولا فى أن تقتصر دراسته على مؤلفات العصر المملوكى وإن اشتملت على كل علم نافع ، وعلى كل أدب مفيد ، وحتى لو بلغت جهود الأزهريين فى تنقيحها وتهذيبها الغاية التى ليس بعدها من غاية .

وإنما الخير كل الخير للأزهر فى أن تكون دراسته مستوعبة تتناول المؤلفات منذ عرف المسلمون التأليف والتدوين . تدرسها وتتبين أسلوبها ومنهجها وموضوعاتها .

ثم تنتقل إلى فترة تلى ذلك وتصنع بها نفس الصنيع ، ثم تنتقل إلى فترة ثالثة ، وهكذا ما تزال تنتقل من فترة إلى فترة ومن عصر إلى عصر حتى ينتهى بها المطاف إلى مؤلفات العصر الراهن . وهى فى تضاعيف كل ذلك تبين الصلات بين الآراء والنظريات ، وتعقد المقارنات بين العصور والفترات .

ينبغى — فى رأيى — أن يفصل الأزهر كل ذلك ليؤدى واجبه نحو كل عصر من العصور وعهد من العهود ، وليؤدى أيضاً واجبه نحو نفسه ، إذ ليس واحد منها أولى من كل ما عداه بكده وجهده ، وبأن يستوقفه عنده ويصرفه عن غيره .

إن العلماء من غير الأزهريين لا يحقرون عهداً من العهود ، ولا يزورون عصراً من العصور وإنما يعطون كلا ما هو جدير به من عناية واهتمام ، حتى إنهم ليدرسون الإنسان الأول فى عصور ما قبل التاريخ ، ليعرفوا أسلوب تفكيره وطريقة بحثه ، والموضوعات التى استرعت انتباهه فأخضعها لتفكيره وبحثه .

إنهم يفعلون ذلك مع ثوقهم بأن الانسان الأول كان بدائيا فى أسلوب تفكيره وطريقة بحثه ، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يدرسوه ليضعوا للعقل الانسانى سجلا كاملا ، نستطيع أن نتبين

بعض الأيدى لا تريد أن تتصافح ، وأن بعض الرءوس لا تريد أن تتسامح ، ولو ضاع فى سبيل تلك الأثرة البغيضة كل مجد من أمجاد العروبة وكل قرية من قرى فلسطين وكل مبدأ من مبادىء والأخلاق ؟ !

إن هذه الروح المثالية التى تجلت فى حديث صاحب الجلالة الأفغانية عن قوة الإسلام التى لا تقهر ، لجديرة بإيقاظ بعض الضمائر التى سمحت لهذه القوة بأن تقهر وهى على أبواب تل أبيب ! !

أ . م

فيه مراحل تطوره ، وعوامل نضجه، وأسباب تقدمه، ولم يمنعهم أيضا من أن يشبعوا ميولهم المتعطشة لمعرفة كل ما يمكن معرفته ، ميولهم التي تحاول أن ترسم للكون والانسان صورة أقرب ما تكون إلى الصحة والصدق ، ولم يمنعهم ثالثا من أن يتوقعوا علم ما لم يكونوا يعلمون على يدى هذا الانسان الأولى الذى كان أسبق منهم وجودا واستجلاء لمشاهد الكون ، واستمتاعا بمنافعه .

إنهم يدرسون أرسطو ويترجمون كتبه إلى شتى اللغات ، ويشيدون بمآثره وفضله وسبقه رغم ما أثبت العلم الحديث فساد كثير من آرائه ونظرياته . وإنهم ليقسمون الزمن إلى عصور فيقولون - العصر القديم ، والعصر الوسيط ، وعصر النهضة ، والعصر الحديث ، ويدخلون تحت كل قسم من هذه الأقسام طائفة من الأبحاث والنظريات والأشخاص ، ويدرسون كل طائفة من هذه الطوائف على حدة ، ويكب بعض الدارسين على أحد هذه العصور ، أو على شخصية من شخصياته أو على نظرية من نظرياته ، ليتخصص فيها ويسبر غورها ويجلو غامضها، ويكب بعض آخر على جانب آخر وهكذا حتى يتوزعوا جميع هذه الآراء والنظريات وتلكم الشخصيات ويلموا بأطرافها بحثا وتمحيصا ونقدا وتدقيقا . وهم فى تضاعيف كل ذلك يعقدون المقارنات ، ويتبينون الروابط والصلات ، ويكشفون عن الأصل والفرع ، والتابع والمتبوع ، والناسخ والمنسوخ ، والزائف والصحيح ، ويخرجون من كل ذلك بسلسلة مترابطة من الأفكار والمعلومات ممتدة بامتداد الزمن متصلة باتصاله .

وإنه ليلذ للعالم الضليع أن يلم بأطراف الزمن ويتعرف صنوف التفكير وألوان الرأى فى المسألة الواحدة ، ويشوقه أن يتعرف وجهة نظر الأقدمين ووجهة نظر المحدثين وأن يقول حين يعلم أو يؤلف أو يناظر ، كانوا قديما يعتقدون فيها كذا ، ولكنهم الآن يعتقدون فيها اعتقادا غيره ، ثم يبسط وجهة نظر كل فريق ويناقشها ، وفرق كبير بين عالم هذا شأنه ، وآخر يلقى حكمه فى نفس المسألة ناقصا مبتورا ، يدل على عدم دراية بما انتهى إليه أمر المسألة وآخر مرحلة من مراحلها ، وجهل تام بما قبل ذلك ، وبصنوف التفكير التى تواردت عليها ، ولولا الدراسة المستوعبة المتطورة ما نشأ ما يسمونه تاريخ النظريات أو تاريخ العلوم

* * *

خبرنى بربك ! ، إذا كان هذا هو شأن العلماء مع أفكار متضاربة متناقضة يقوم بعضها على أنقاض بعض ، فما بال علمـــاء الأزهر يقطعون الصلة بين أفكار متآخية متساندة ، يشد بعضها أزر بعض ويسدلون الستار على كل جوانبها ويطمسون معالم الزمن فى مراحل نموها وتطورها ماعدا جانبا واحدا من جوانبها أو ماعدا فترة زمنية محدودة من فـــترات عمرها المتطاول راحوا يختلفون أى هذه الجوانب الكثيرة ، أو أى هذه الفترات الزمنية أولى بأن تقصر عليه جهودها ، وتحصه بعنايتنا ودراستنا وتدريسنا ؟!

على رسلكم ، فليس بعض جوانب الفكرة أولى بالدرس والتمحيص من البعض الآخر ، ولا بعض الفترات الزمنية أحق من سواها بذلك . أدرسوا كل جانب ، ولا تقطعوا صلتكم بعصر من العصور ، وما كان الإمام الراغى بقوله تلك إلا حريصا على أن تكون دراستكم مستوعبة لا يفلت منها عصر من العصور حتى أشدها كراهية وبغضا ، لا أن يكون عصر من العصور مهما يكن له من خصائص ومميزات تسمو به على كل ما عداه ، هو كل معلومكم ، ومنه وإليه بدؤكم وانتهاؤكم !

سليمان رشيا

عضو بعثة الأزهر بانجلترا

من الأدب الفرنسى

قصائد وأقاصيص

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها .

وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد